قصة قصيرة :

كان فجراً قصيراً جداً

بقلم رغيد النحاس

أطلّ الحاج بشير من احدى نوافذ الطبقة العلوية من منزله والمشرفة على فناء داره العربية الاصول الشرقية الملامح ، ونظر الى السماء يتفحص لون اللانهاية مترقبا آذان الفجر . ولقد سرت في جسمه قشعريرة من نسائم باردة ، ومن هدوء عميق كان يخيم على تلك اللحظات النشيطة من حياته . ومع انه ظل يزاول هذه التجربة الحسية على مدى السنين فانه لم يستطع أن يجد في السماء لونا يتغير فيعتمد عليه في تحديد لحظة آذان الفجر ، أو نجما يتبسم له فيقول : فجرا سعيدا ايها الحاج . ومع هذا فكان يردد في زوايا تفكيره « سبحان مالك الملك » ، كلما رمى بأنظاره العميقة في ابعاد الفضاء ، وكان يبتسم راضيا عن نفسه لانه كان يشعر بأنه يكرس الكلمات المقدسة : « وتأملوا في خلق السموات والارض » . أما بالنسبة للآذان فان صوت المؤذن يبقى هو الحكم النهائي على صحة التوقيت . أما كيف يعرف المؤذن متى يجب أن يؤذن ، فهذا شيء لم يسرح فيه خيال الحاج ، بل كان همه الاكبر كلّ صباح أن يوقظ زوجه الحاجة سمية ثم ينزل الى فناء الدار ليتوضأ من ماء البركة المتربعة في الوسط . ومع ان الماء الساخن متوفر في الطبقة العلوية من الدار ، فان الحاج كان موقنا بأن الثواب هو على قدر المشقة وان عليه استعمال الماء الطبيعي البارد حتى في أيام دمشق الشتوية القارصة .

كان بعد أن يتوضأ ويتمتم بآيات الشكر والحمد والثناء على الله والانبياء وخاتم الانبياء وعلى الاولياء والخلفاء ، والمؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات ، كان يرفع رأسه باتجاه النافذة المفتوحة في الطبقة العلوية مناديا الحاجة :

ـ يا أم توفيق .. يا أم توفيق.. انصتي للفجر.. وخبّريني .

ولم تكن الحاجة سمية بحاجة لهذا التذكير الذي سمعته آلاف المرات .. بلّ ان عملها الوحيد من لحظة ايقاظ الحاج لها وحتى سماع آذان الفجر هو الانصات للحظة الآذان . وكان هذا واجبا عليها لا مفر لها منه بعد أن احتفظت السنين الطويلة بمعظم صحة الحاج خلا بعض المشكلات ومنها ضعف قدرته على سماع الآذان الذي يتردد من مآذن المسجد الاموي . ولا عجب في ذلك ، فان الحاجة التي تصغره بثلاثين عاما تلاقي بعض الصعوبة أحيانا . ولكنها كانت دائما تنتظر لحظة الفرج بصبر ، فما أن تسمع الصوت المتردد من أعماق الفجر الساكن حتى تخبر الحاج وتتمتم الى نفسها بأن يا ليت الحاج يؤمن بأن التوقيت المكتوب في التقويم هو صحيح، ولربما كان المؤذن نفسه يعتمد على أي تقويم متوفر لديه . أما الحاج ـ « أعانها الله عليه » ـ فكان لا يؤمن الا بذلك الصوت الرخيم الذي ما عاد يسمع منه في الفجر الا صدى ذكريات خلت .

عندما اطمأن الحاج بأن زوجه قد نهضت من فراشها ، توجه بقامته الطويلة النحيلة يجرّ قدميه في قبقاب خشبي من صنع أحد مشاغلّ « القباقبية » جانب المسجد الاموي ، كان قد ابتاعه منذ ما لا يدريه من السنين . توجه نحو الدرج الذي يوصله الى فناء الطبقة الارضية من الدار ، وبدأ بالهبوط بخطوات رتيبة الوقع وعلى طريقته الخاصة ، تلك الطريقة التي صار الفجر متعودا عليها مذ دخلّ الحاج في سنوات حياته الشيخة.

رفع طرف قنبازه الابيض المقلم بخطوط منقطة رمادية اللون بيد ، واعتمد بيده الاخرى على حافة الدرج ثم نقلّ قدمه اليمنى الى أولّ درجة وتبعها بالقدم اليسرى الى الدرجة نفسها ، ثم توجه باليمنى الى الدرجة الثانية ثم تبعها باليسرى وهكذا ... وكان خشب القبقاب العريق الذي يطأ خشب الدرج مع كلّ نقلة يكسب الفجر ايقاعا خاصا يستمر حتى يصلّ الحاج الى فناء الدار المكشوف فيتغير الايقاع وتتسارع الاقدام وخشب القبقاب يشحط شحطا على بلاط الباحة .

وتوضأ الحاج بسرور عميق . ولولا رتابة الوضوء وروتينه لبدا الحاج وكأنه طفلّ يحب العبث بماء البركة. ثم استدار ورفع يديه المبتلتين بعيدا عن جسمه ، ورفع رأسه مناديا زوجه أن انصتي لآذان الفجر ، ثم توجه الى غرفة كان يؤدي فيها فرائضه . كان عليه حتى يصلّ الى

الغرفة أن يصعد درجتين من الحجر الاسود فيما هو رافع بيديه ، وكان هذا يتطلب منه بعض الجهد ويأخذ منه بعض الوقت ، حتى يصل الى منشفته فيجفف نفسه ثم يركن الى زاوية الغرفة ويقعد على أرضها فتقعد معه ست وتسعون من السنين شهدت الاحتلال العثماني والحربين العالميتين ، ثم الاحتلال الفرنسي لبلاده ، وانجابه أحد عشر ولدا وانجاب كل منهم أكثر من نصف دزينة من الصبايا والصبيان ، وآخر ما فيها ـ وليس الاخير ـ اختراع ذلك التلفزيون العجيب الذي أصرّ أحفاده على ادخاله الى بيته حتى تتسلى زوجه التي « ما زالت في ريعان السادسة والستين » . كانت هذه الافكار تترامى الى رأسه وهو يفتح القرآن ليباشر قراءته اليومية قبل صلاة الفجر .

وضع القرآن بين يديه ، وقبل أن يباشر بفتحه تراجعت الى مخيلته مناقشة حادة جرت بينه وبين حفيده رؤوف ، وكانت كالعادة مناقشة بين ست وتسعين من سنوات التحفظ والتدين وبين سنوات عشرين من التحرر والثورة على التقاليد . وكان الحاج كلما تذكر كلمة من كلمات رؤوف يرفع رأسه الى الله مخاطبه أن سامحه واهده الى سراط مستقيم . ولكن الحاج ما يلبث أن يتذكر فحوى كلمات حفيده الذي أحبه أكثر من كل أحفاده وفضّله عليهم أيما تفضيل ، غير انه ما كان ليتوقع أبدا أن يكون رؤوف « المتقد الذكاء والشديد الوسامة والعظيم الادب » السباق الى الثورة على العرف والتقاليد . ويبتسم الحاج فجأة حين يتذكر قول رؤوف له : « يا جدي انك انسان عظيم ، فبرغم كل أفكارك فعلى الاقل أنت تنصت لي وتناقشني بذكاء كبير . أما غيرك من الشيوخ فلا مجال لنا في الكلام معهم ، بل يتشاطرون برمي التهم والادعاءات على الشباب وعلى أفكارهم دون فهم نفسياتهم ومتطلبات عصرهم الجديدة » .

« عفوك يا رب » ، قال الحاج في سريرته ، وهو يشعر ان كلام حفيده بدأ يفعل في نفسه فعل الرشوة . ولكن الحاج كان على كل حال فخورا جدا بأنه الوحيد من شيوخ الحي الذي اشتهر بانفتاحه على الشباب الثائر . وكان الحاج دائما عرضة للانتقاد من أقرانه الذين شنوا حربا سوداء على هؤلاء « المراهقين » . كان الحاج يتلمس في قرارة نفسه فرقا واضحا بين المراهقة وبين الثورة والتغيير ، وكان مستعدا للنقاش ، وكان عادة من أبرع من يناقش دفاعا عن العرف والتقاليد .

ـ يا حاج .. يا حاج .. الفجر الفجر يا حاج ..

لقد سمع الحاج بأذنيه نداء زوجه الذي صار روتينا يوميا ، ولكنه كان شارد الذهن في تلك المناقشة الحادة التي كانت عائقا بين الاذنين والقلب . ففي تلك اللحظة بالذات كان يفكر في الذي قاله رؤوف عن الوجود وعن العدم .. كان يفكر في تلك الكتب التي كان يجلبها رؤوف له ويقول له : « يا جدي سأقرأ القرآن مرة كاملة كلما قرأت كتابا من هذه الكتب » . كان يتذكر كيف انه تعرف الى هيجل وماركس وسارتر وفرويد عن طريق حفيده رؤوف . وهو وان لم يفهم ماهية هؤلاء القوم فعلى الاقل قد سمع بهم وساعده رؤوف في فهم الكثير عنهم ... ولكن تبقى أفكارهم غريبة جدا عليه . ومع هذا فلقد تحرك الآن عقله بمشكلة جديدة . مشكلة فتحها عليه ذلك « اللعين الصغير » الذي جاء يتكلم عن المنطق العلمي وعن داروين .. عن عدم قبول الاشياء كما وردت بل التفكير في لماذا وردت وكيف وردت . على كل حال كان فرحا بأن أقرانه الشيوخ لا يفقهون شيئا من هذه المسائل الغريبة العجيبة . أما هو فصار يعلم . وكان ما يزعجه انه تعلم هذه الاشياء من حفيده « الصغير » . آه من ذلك اللعين . لقد كدر عليه صفو دينه ودنياه . فها هو الحاج الآن ينظر الى عشرات السنين الماضية وهو يعلم ان كل شيء قد لا يكون سوى الوهم . يا ليته لم يناقش رؤوف ، ويا ليته بقي على ذلك « الوهم الكبير » .

وبدا للحاج فجأة انه بدأ يتحدث عن كل معتقداته وتقاليده بصفة الوهم .

تسارعت دقات قلبه وارتعشت حناياه لهذا التفكير واستغفر الله كثيرا .. وهرع يفتح القرآن .. وكم كانت دهشته عظيمة حينما وجد ان بعضا من السطور قد أنارته خيوط الشمس التي بدأت تتسرب من نافذة مخدعه ... مرّر كفّه على صلعته ثم مسح وجهه بكفه ضاغطا ببعض أصابع يده على عينيه ، ونظر مجددا الى صفحات الكتاب وقد أضاءتها الشمس . قام مذهولا الى باب الغرفة ... حافي القدمين .. وهو ينظر الى النور الذي جاء من المشرق ...

نظر الى زوجه التي كانت قد بدأت بخبز ما عجنته ، وعلم في قرارة نفسه ان زوجه ما كانت لتعجن العجين لو لم تؤد صلاة الفجر أولا . وكأن هذا التقرير الضمني كان تأكيدا له على ان الفجر قد ولى الى غير رجعة ، وكأن خيوط الشمس لم تكن كافية لتؤكد له مع كل شعاع ان صلاة الفجر قد فاتته لاول مرة منذ أن بدأ الصلاة في كنف والده وهو لا زال في السابعة من عمره .

بينما كانت الدموع الجارحة تترقرق في عيني كبريائه وصموده كان عشرون ماردا عملاقا يقرعون طبولا مدوية في رأسه ، ويصرخون بصوت شاب واحد : « لقد كان فجرا قصيرا يا جدّي ! » .

انكلتره